

القراءة الفرويدية للقرآن الكريم

قراءة نقدية لإسقاط مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور"

على قوله تعالى: (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

بقلم

سلمان عبدالأعلى

المقدمة

هل يمكن أن تكون مفردة قرآنية واحدة قد سبقت العلوم الحديثة في تناول أمور لم تعرفها البشرية إلا بعد قرون طويلة؟ هل يمكن أن تكون مفردة (أخفى) في قوله تعالى: ﴿... فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قد سبقت علم النفس المعاصر في الإشارة إلى ما يُسمى بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور"؟

قد تكون الإجابة عن مثل هذه التساؤلات بديهية ومحسومة سلفاً بـ(نعم) لدى كثير من المتحمسين لإثبات مسألة سبق القرآن الكريم للعلوم الحديثة، سواءً في هذه الآية المباركة أو في غيرها، إذ قد تبدو هذه الفكرة جذابة ومقنعة للوهلة الأولى، ولا سيما إذا كان صاحبها شخصية معروفة ومؤثرة في الساحة الدينية.

لذا، قد يبدو من يناقش هذه الفكرة أو يتوقف عندها أو حتى يتردد في قبولها، وكأنه يُشكك -من حيث يدري أو لا يدري- في أسبقية القرآن الكريم في إشاراته العلمية، بل وكأنه ينتقص من تفوقه على ما توصل إليه العلماء المعاصرون.

من هنا تكمن أهمية هذه القراءة النقدية؛ فهي ليست بصدد إثبات أو نفي أسبقية القرآن الكريم في الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية، وإنما تُعنى بتساؤلات أخرى: هل "العقل الباطن" أو "اللاشعور" هو المراد فعلاً من لفظ "أخفى" في الآية المباركة؟ وهل قدم صاحب الدعوى من الأدلة والقرائن ما يكفي لإثبات ذلك؟ وهل يكفي التشابه بين مفهوم نفسي حديث ومعنى لغوي في الآية لإثبات أن القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك المفهوم؟

وتزداد أهمية هذه الأسئلة إلحاحًا حين يحظى صاحب الدعوى بمنزلة دينية واجتماعية مرموقة، ولم يطرح الفكرة بنحو عابر، بل ظل يكررها في خطابه ومحاضراته، وفي أكثر من موضع، وعلى امتداد سنوات ليست بالقليلة.

وهذا ما يجعل الحاجة إلى دراستها وفحص أدلتها أشد، خلافاً لما قد يتوهمه بعضهم، لأن المكانة الاعتبارية للقائل قد تمنح فكرته حضوراً وتأثيراً في وعي المتلقي يفوق ما قد تحظى به لو صدرت من غيره، وقد تدفع المتلقي إلى التعامل معها وكأنها حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش. وهذا مجانب للصواب، إذ لا تُغني مكانة القائل مهما علت عن دراسة أطروحاته واختبار مدى قوتها، قبل القبول بها أو التسليم بصحتها.

وأهدف من وراء هذا المقال إلى فتح باب النقاش حول هذه المسألة مع صاحب الدعوى نفسه، ومع من تلقاها منه بالقبول والاستحسان، للحث على مراجعتها والتحقق من صحتها، والكف عن مواصلة الاستشهاد بالآية على هذا المعنى في حال عدم ثبوت دلالتها على ما يُسمى بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور" بالكيفية ذاتها التي طالما طُرحت بها.

وقبل المضي قدماً في مناقشة هذه الدعوى والخوض في تفاصيلها، أرى من المهم توضيح بعض النقاط المهمة؛ حتى لا يُحمل النقد على غير مقصده، أو تُفهم بعض المصطلحات والعبارات الواردة فيه على خلاف مُرادها:

أولاً: استخدام عبارة (صاحب الدعوى)

استخدمت هذه العبارة للإشارة إلى من طرح هذه الأطروحة، دون ذكر اسمه

صراحةً، وهو اختيار مقصود ومتعمد، وليس الغرض منه إخفاء هويته، أو الانتقاص من قدره، أو تجاهل منزلته، وإنما أن يظل النقد منصبًا على موضوعه الأساسي: (مضمون الدعوى، ودليلها، وطريقة الاستدلال عليها) بغض النظر عن الأشخاص.

ثانيًا: استخدام مفردة "القراءة" بدلًا من "التفسير"

عبرت عن هذا الطرح بمفردة "القراءة" بدلًا من "التفسير"، حتى لا يفهم من ذلك أنني أنسب إلى صاحب الدعوى تفسيرًا صريحًا للآية على نحو مقصود ومتعمد، بما قد يُوقعه في بعض المحاذير الشرعية المرتبطة بنسبة معنى محدد إلى النص القرآني، دون وجود ما يسند ذلك من ناحية علمية رصينة.

ثالثًا: وصفها بـ"القراءة الفرويدية"

وصفت هذه القراءة بـ"القراءة الفرويدية للقرآن الكريم"، ولا يعني ذلك أن صاحب الدعوى أخذ هذه الفكرة بحذافيرها من عالم النفس والطبيب النمساوي سيغموند فرويد، ولا أن كل حديث عن "العقل الباطن" أو "اللاشعور" يمثل بالضرورة تبعية مباشرة له، وإنما اخترت هذا الوصف لأن فرويد يُعد أحد أبرز الرموز التي ارتبط اسمه بها في الوعي العام، وإن كان البحث في الجوانب النفسية الخفية أوسع بكثير من مشروعه.

وأود الإشارة إلى أنني لا أعترض على الاستفادة من العلوم الإنسانية الحديثة في قراءة النصوص الدينية، ولا أرى أن كل فكرة جديدة ينبغي أن تُرفض لمجرد حداثةها. كما أنني لا أدعي أن ما سأطرحه في هذه الصفحات بمنأى عن القصور أو الحاجة إلى المراجعة.

وما أقدمه هنا ليس ادعاءً بالإحاطة بعلم النفس أو بالتفوق في مجاله على المختصين، والأمر ذاته ينطبق على العلوم الدينية، وإنما هي محاولة بسيطة لفحص دعوى محددة، من خلال دراسة مدى قوة الأدلة المطروحة عليها وصحة الاستدلال بها. وسيكون ذلك عبر النظر في مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، ودلالات لفظ "أخفى" في الآية، وسياقها القرآني، وما استُدل به من روايات.

كما أن مناقشة هذه الدعوى في وقفات مستقلة قد تؤدي أحياناً إلى تكرار بعض العبارات والأفكار، نظرًا إلى ارتباط كل وقفة بجانب معين من الموضوع. وقد حرصت على تجنب التكرار قدر الإمكان، إلا أنني اضطررت له في بعض المواضع بسبب ما تقتضيه طبيعة المناقشة.

سلمان عبدالأعلى

صباح يوم الأربعاء 3 جمادى الأولى 1448 هـ

الاستدلال بالآية على (العقل الباطن)

ذكر صاحب الدعوى أن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾¹ يُشير إلى ما يُسمى بـ"العقل الباطن"، ويبدو أن هذه الفكرة كانت راسخة لديه، لأنه كررها في أكثر من مورد ومناسبة، وفي العديد من محاضراته، وعلى امتداد سنوات ليست بالقليلة.

يقول صاحب الدعوى في إحدى محاضراته: "العقل الباطن هو القوة التي تختزن ميول الإنسان، الميول المختزنة هناك قوة تجمعها تُسمى بقوة العقل الباطن". أشار إليها القرآن الكريم في قوله: (هو يعلم السر وأخفى).²

ثم يتساءل: ما هو الأخفى من السر؟ ويجب قائلًا: "منطقة العقل الباطن، التي تختزن الميول التي لا يشعر بها الإنسان. (هو يعلم السر وأخفى)"².

يتضح لنا من خلال هذين النصين أن الاستدلال عند صاحب الدعوى يقوم على مسألة الربط بين مفردة "أخفى" وبين ما يصفه بـ"العقل الباطن"، وأن هذه المنطقة تختزن ميولًا لا يشعر بها الإنسان، والسؤال الأساسي هنا، والذي ينبغي الإجابة عنه: هل يدل لفظ "أخفى" في الآية على هذا المفهوم النفسي أم لا؟

¹ القرآن الكريم، سورة طه، الآية 7.

² تعمدت وضع النص الذي استشهد به صاحب بالدعوى بين قوسين عاديين ودون تشكيل، لوقوعه في خطأ عند قراءة الآية، وسأبين أثر ذلك في فهم دلالة الآية ضمن الوقفة التي سأحدث عن دلالة الآية ضمن سياقها لاحقًا.

الاستدلال بالروايات على (العقل الباطن)

استدل صاحب الدعوى على كلامه عن "العقل الباطن" بالإضافة إلى الآية المباركة بروايتين:

■ **الأولى:** ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "ما أضمر امرؤ في قلبه شيئاً، إلا وظهر على قسمات وجهه أو فلتات لسانه". وعقب عليها قائلاً: "هذا العقل الباطن".

■ **الثانية:** ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل في المقطع التالي: "الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهوداً علي مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب علي من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم". وعقب قائلاً: "هناك أمور تخفى حتى عن الملائكة. هي هذه ميول العقل الباطن التي يطلع عليها الله تبارك وتعالى".

وقفات نقدية: مع فكرة "العقل الباطن" هو "أخفى" في الآية

أجد من الضروري الآن بعد عرض هذه الدعوى وطريقة الاستدلال عليها، أن تكون لنا عدة وقفات نقدية معها للتأكد من صحتها، إذ سأحاول من خلال هذه الوقفات تفكيك هذه الدعوى، ومناقشة كل جانب من جوانبها على حدة قدر الإمكان.

الوقفة الأولى: تحرير محل النزاع

من المهم أولاً أن نحدد مراد صاحب الدعوى من إسقاط أو ربط مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور" على مفردة "أخفى" في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾. فهل مراده أن "أخفى" في الآية هو ما يُسمى بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور" تحديداً؟ أو أن مراده بأن "العقل الباطن" قد يدخل ضمن مصاديق ما هو "أخفى" فقط؟

وبالنظر إلى تصريحات صاحب الدعوى في هذا المورد وغيره، يتضح إنه لم يأت بهذه الدعوى على إنها مجرد مصداق من المصاديق، وإنما يرى إن (أخفى) هو العقل الباطن على حد تعبيره، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال عدة أمور:

■ أولاً: تصريحه المباشر تعقيباً على الآية في الموضع الذي أشرنا إليه سابقاً،

بقوله: ما هو الأخفى من السر؟ بالقول: "منطقة العقل الباطن"، فهو في هذا المورد لا يقول إن منطقة العقل الباطن أحد المصاديق الممكنة لما هو أخفى، وإنما يجعلها جواباً مباشراً عن سؤال: ما هو الأخفى من السر؟

- ثانيًا: عدم وجود قرينة ظاهرة في السياق نفسه يُشير إلى أنه كان بصدد ذكر مصداق من المصاديق، وليس بيان المراد من "أخفى" في الآية.
- ثالثًا: استشهاده في محاضرة أخرى بالآية نفسها في سياق الحديث عن التفسير العلمي للقرآن الكريم، وهو ما يُعزز أن الآية عنده ليست مجرد مثال يمكن أن ينطبق عليه مفهوم "العقل الباطن"، وإنما تُستعمل شاهداً قرآنياً عليه³.

وبناءً عليه؛ فإننا سنتعامل مع هذا الطرح بحسب ظاهره، وليس بحسب ما قد يُحتمل من نية صاحب الدعوى، لأننا لا نحكم النوايا، وإنما نناقش الأقوال والتصريحات كما يفهمها المتلقي وفق قواعد المحاور العقلانية، وهذا ليس مجرد اختيار أو تفضيل شخصي، وإنما ينسجم منهجياً مع ما قرره علماء الأصول في باب حجية الظهور.

يقول صاحب كتاب عمدة الأصول: "ولا يخفى أنّ الظهورات الكلامية المرادة حجة عند العقلاء، ولذا يحكمون بوجوب اتباعها في تعيين مرادهم، ويحتج بها كل متكلم وسامع على الآخر فإذا كان شيء مستفاداً من الكلام أخذ به

³ التفسير العلمي للقرآن الكريم، محاضرة في اليوم التاسع شهر صفر 1446 هجري، مؤسسة الإمام (علي السلام) المكان: ديوان الكفيل - لندن. الدقيقة 17.

المتكلم وجعله حجة على مراده وتمسك به السامع وجعله حجة على مراد المتكلم"⁴.

ويقول أيضاً: "ثم إنَّ طريقة الشارع في إفادة مراداته ليست مغايرة لطريقة العقلاء في محاوراتهم؛ لأنَّ الشارع لم يبتدع طريقة أخرى، بل كان يتكلم مع الناس بلسانهم وطريقتهم وهذا واضح لا ستره فيه، ويشهد له إرجاعات الشارع إلى الظهورات والاحتجاجات بها..."⁵.

ولذا، حين يقول صاحب الدعوى إن "أخفى" هو "العقل الباطن"، فالمناقشة هنا لا تتعلق بما قد يكون مراده في نيته، وإنما بما يفهم من عبارته في سياقها.

والأمر الآخر؛ بإعادة النظر في كلام صاحب الدعوى التي استعرضناه سابقاً نجد إنه يتضمن عدة دعاوى:

- أن الإنسان يمتلك ما يُسمى بـ (العقل الباطن).
- أن هذا العقل يحتزن ميولاً لا يشعر بها الإنسان.
- أن هذه الميول تمثل ما هو (أخفى من السر).
- أن القرآن الكريم أشار إلى هذا المفهوم في قوله: (...يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).
- أن بعض الروايات الواردة عن أمير المؤمنين والإمام الصادق عليهما تُؤكد

⁴ عمدة الأصول، تقرير السيد محسن الخرازي، تحقيق السيد علي رضا الجعفري ج 5، ص 9.

⁵ المرجع السابق، ج 5، ص 9.

وجود "العقل الباطن".

وبالتدقيق في هذه النقاط نجد إنها دعاوى مستقلة، أي لا يثبت بعضها بعضاً، فحتى لو ثبت وجود عمليات تجري خارج نطاق الوعي المباشر للإنسان، وثبت أيضاً أن ذلك يُشير إلى "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، فإن ذلك لا يستلزم أن تكون هي المقصودة بلفظ (أخفى) في الآية الكريمة، لأن ذلك يحتاج إلى دليل آخر.

وهنا ينبغي تحديد محل النزاع بدقة، فليس البحث في مجرد وجود عمليات نفسية لا واعية، ولا في إمكان انضواء بعض مصاديقها تحت وصف "أخفى" في الآية، وإنما في السؤال الآتي: هل اللاشعور أو العقل الباطن هو المراد القرآني من لفظ "أخفى"؟ فهذا هو السؤال الذي ينبغي أن نختبره في ضوء دلالة الآية، وأقوال المفسرين، والروايات التي استُدل بها في هذا الشأن.

الوقف الثانية: أصل هذه القراءة وجذورها

تثير هذه الأطروحة سؤالاً مهماً جديراً بالبحث: هل القول بأن "أخفى" في الآية هو "العقل الباطن" رأي خاص بصاحب الدعوى، أم أن له أصلاً وجذوراً سابقة في بعض الكتابات والأطروحات الأخرى؟

عند الرجوع إلى كتب التفسير، لم أقف في حدود بحثي وتتبعي، على رأي يربط بين "أخفى" و"العقل الباطن" بهذه الصورة الواضحة دون الحاجة إلى التأويل،

لكني وجدت هذا الربط بصورة واضحة وصريحة لدى الشيخ جعفر السبحاني في كتاب نظرية المعرفة (المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات)، إذ أشار إلى هذا الرأي، وأورد في سياقه الشواهد ذاتها التي ذكرها صاحب الدعوى.

يقول الشيخ جعفر السبحاني: "فالآية تدل على أن هناك أشياء في الضمير الإنساني، مكتومة على الإنسان نفسه، لأنها ليست في عقله الواعي، بل في عقله الباطن الذي لا تتجلى سرائره وخفائيه إلا في حالات خاصة كما ذكرنا"⁶.

ثم يردف بذكر الشواهد الروائية على كلامه بما يلي:

وروى الصدوق في معاني الأخبار عن محمد بن مسلم، قال: «سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق) -عليه السلام- عن قول الله عزّوجلّ: (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)، قال: «السّرّ ما أكننته في نفسك، و«أخفى»: ما خطر ببالك ثم انسيته».

وقال الإمام علي -عليه السلام- في إشارة واضحة إلى العقل الباطن الذي يحتفي عند سيادة العقل الواعي، ثم يظهر على حين غرة عند كبوته أو خضوعه للمؤثرات النفسية القوية: «ما أضمرَ أحدُ شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه».

وقال -عليه السلام- في الدعاء الذي علمه لكميل بن زياد النخعي:

⁶ نظرية المعرفة (المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات)، للشيخ جعفر السبحاني، بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي ج، 1، ص 255-257.

«إلهي وسيدي، فأسألك بالقدرة التي قَدَرْتَهَا... أن تهب لي في هذه الليلة، وفي هذه الساعة، كل جُرم أَجْرَمْتُهُ... وكلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْبَاتِهَا الْكَرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم»⁷.

تكشف لنا المقارنة بين ما طرحه صاحب الدعوى، وما ذكره الشيخ السبحاني عن وجود تشابه جوهري كبير وملحوظ للغاية في المصطلحات المستخدمة، وفي بناء الاستدلال، وكذلك في الشواهد المستند إليها، فليس التشابه هنا مقتصرًا على مجرد الاستشهاد بالآية فحسب، وإنما يمتد إلى الطريقة والاستدلال بالروايات أيضًا.

وهذا التشابه يثير احتمالاً يستحق الإشارة إليه، وهو أن يكون صاحب الدعوى قد استقى هذه القراءة من هذا المصدر، أو تأثر به بصورة مباشرة أو غير مباشرة⁸، وما يهمني هنا ليس هذا الأمر، بل التأكيد على أن صاحب الدعوى لم ينفرد بهذا الرأي، وأن ما ذكره له أصل سابق أو جذور وينابيع ربما يكون قد استقاها منها⁹.

⁷ المصدر السابق، ج1، ص256-257.

⁸ لا يُستبعد أن يكون صاحب الدعوى قد تأثر بهذا الطرح بصورة غير مباشرة، عبر وسيط استعان به في إعداد المحاضرات أو البحث في المصادر ذات الصلة، وإن كان ذلك مجرد احتمال لا يمكن الجزم به.

⁹ لا يعني هنا تحديد ما إذا كان صاحب الدعوى قد نقل عن الشيخ السبحاني دون الإشارة إلى ذلك، إذ إن الأخذ من المصادر دون الإشارة إليها ممارسة يمكن ملاحظة شواهد عليها لدى بعض المحسوبين على الفكر الحوزوي، ولسنا هنا في مقام استعراض تلك الشواهد أو مناقشة هذه القضية أصلاً.

الوقفه الثالثة: تحرير مصطلح (العقل الباطن)

استعمل صاحب الدعوى مصطلح "العقل الباطن" في حديثه عن دلالة مفردة "أخفى" في الآية المباركة، ولم يستعمل مصطلحات أخرى ربما تكون متداولة أكثر في الأدبيات النفسية الحديثة، مثل "اللاشعور" أو "اللاوعي". والأمر ذاته وجدته أيضاً لدى الشيخ السبحاني في المورد الذي أشرت إليه سابقاً.

وعند الرجوع إلى بعض الكتب والمعاجم التي تُعنى بمصطلحات علم النفس، وجدت أن الأدبيات النفسية تستخدم بصورة أكثر مصطلحات مثل اللاشعور Unconscious، وما قبل الشعور Preconscious، ومفاهيم أخرى لوصف العمليات الذهنية التي تجري خارج نطاق الوعي المباشر كالذاكرة الضمنية Implicit Memory،¹⁰ فكل هذه الاستعمالات تكشف لنا أن الحديث عن الجوانب النفسية التي تقع خارج الوعي المباشر لا تدور بالضرورة حول مفهوم واحد بسيط يُسمى بـ"العقل الباطن"¹¹.

¹⁰ المراجع التي رجعت إليها: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، د. عبدالمعظم حنفي، ج2، مكتبة مدبولي 1978. معجم مصطلحات التحليل النفسي، تأليف جان لابلانز وج. ب. بونتايس، ترجمة الدكتور مصطفى حجازي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 1422 هـ - 2002 م. معجم علم النفس والتحليل النفسي، تأليف كل من: د. فرج عبدالقادر طه، د. محمود السيد أبو النيل، د. شاكراً عطية قنديل، د. حسين عبدالقادر محمد، العميد مصطفى كامل عبدالفتاح، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، معجم الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA في موقعها الرسمي على الانترنت.

¹¹ معجم الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA على الرابط التالي:

<https://dictionary.apa.org/subconscious>

نعم، وجدت استخدام مصطلح "العقل الباطن" أكثر في بعض الكتابات والترجمات العربية القديمة مثل كتاب سلامة موسى "العقل الباطن". كما يظهر ربما بصورة أوسع في بعض الكتابات والمحاضرات المعاصرة ذات الطابع التجاري ككتب ما يُسمى بالتنمية البشرية أو البرمجة اللغوية العصبية، ولا سيما تلك التي تتحدث عن "قوة العقل الباطن" وإمكاناته¹². غير أن ذلك غير كافٍ وحده لتحديد مفهومه العلمي الدقيق، ولا سيما حينما يُستخدم في سياق يُراد من خلاله الاستدلال به على نص قرآني.

من هنا تبرز إشكالية تحديد مفهوم "العقل الباطن" لدى صاحب الدعوى، فما هو المفهوم النفسي المقصود به تحديداً؟ هل مراده هو العقل الباطن Subconscious فعلاً أو اللاشعور Unconscious؟ أم ما قبل الشعور Preconscious؟ أم غيره من المصطلحات النفسية الأخرى؟ أم أن المقصود به يشمل كل تلك المفاهيم التي تُشير إلى ما لا يشعر به الإنسان؟

وهذا سؤال مهم للغاية، ولا أطرحه هنا مجرد الترف، وإنما لضرورة منهجية، ويزداد الأمر أهمية إذا عرفنا أن الجمعية الأمريكية لعلم النفس في معجمها APA Dictionary of Psychology ذكرت أن مصطلح العقل الباطن Subconscious هو تعبير غير دقيق، ويتم تجنبه من قبل علماء النفس في الوقت

¹² هذا عنوان كتاب شهير للدكتور جيزيف ميرني، وقد ترجم إلى العربية بهذا اللفظ.

الحاضر¹³.

وعليه؛ فإذا كان المفهوم نفسه يُعاني من عدة إشكالات منهجية ويحتل عدة معاني مختلفة، فإن الدعوى بأن "أخفى" هو "العقل الباطن" دون تحرير دقيق للمصطلح هي دعوى فضفاضة وفاقة للقيمة، ومن الصعب اختبار مدى **اتساقها** مع النص القرآني في الآية المباركة.

ما هو مراد صاحب الدعوى من (العقل الباطن)؟

وبالعودة مجددًا إلى عبارات صاحب الدعوى التي استعرضناها سابقًا، يبدو أن مراده بـ"العقل الباطن" أقرب إلى العمليات أو الميول التي لا يشعر بها الإنسان وهذا قد يكون مُقارب لمفهوم "اللاشعور"، وذلك لقوله: "منطقة العقل الباطن، التي تحتزن الميول التي لا يشعر بها الإنسان". فهذا الوصف يقترب في طرحه نوعًا ما من بعض التصورات النفسية عن الرغبات والدوافع المكبوتة التي لا يمكن الوصول إليها عبر الوعي، لكنها تحدث تأثيراتها في تفكير الإنسان وسلوكه¹⁴.

غير أن هذا لن يحل الإشكالية أيضًا، لأننا إذا انتقلنا من مصطلح "العقل الباطن" إلى مصطلح "اللاشعور" نفسه، فإن الإشكال سيرافقنا أيضًا، لأن "اللاشعور" أيضًا ليس مفهومًا واحدًا متفقًا على مدلوله، وهناك عدة مفاهيم أخرى

¹³ معجم الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA على الرابط التالي:

<https://dictionary.apa.org/unconscious>

¹⁴ راجع المصدر السابق <https://dictionary.apa.org/unconscious>

تشير إلى العمليات غير الواعية، التي قد تشترك معه أو تندرج تحته، كالذاكرة الضمنية، والتعلم الضمني، والإدراك والمعالجة التلقائية التي لا تصل إلى الوعي المباشر، وغيرها من الأمور التي لسنا بصدد حصرها أو بحثها الآن.

وعليه، إذا كان مقصود صاحب الدعوى من "العقل الباطن" أو "اللاشعور" هو أحد هذه المفاهيم النفسية دون غيرها، فما هي القرينة القرآنية التي اعتمدها لاختيار هذا المفهوم بمفرده دون سواه؟ بمعنى: لماذا يكون "أخفى" ينطبق على ذلك المفهوم تحديداً؟ وإذا كان المراد يشمل جميع تلك المفاهيم المتعددة والمختلفة، فالسؤال هنا: كيف يصح أن يكون لفظ "أخفى" في الآية يشمل مفاهيم ونظريات نفسية مختلفة ومتعددة؟ وما هو الجامع بينها؟

وكل هذه الإشكاليات تبرز لنا وبكل وضوح أهمية تحرير المصطلح بدقة قبل الاستدلال به، لأننا لا نستطيع أن نكتفي بالقول: "أخفى" هو "العقل الباطن"، ثم نترك مفهوم "العقل الباطن" مفتوحاً على كل ما يمكن أن ينضوي تحته من مفاهيم ونظريات. وهذا ما وقع فيه صاحب الدعوى، إذ انتقل إلى ربط اللفظ القرآني بالمصطلح النفسي دون أن يحدد المعنى الذي يريده بهذا المصطلح تحديداً.

الوقفه الرابعة: هل المراد بـ (أخفى) في الآية ما هو أخفى من السر؟

يتوقف تحديد المراد من "أخفى" في الآية المباركة، على تحديد المراد من "السر"، لأن الآية بحسب التفسير المشهور فسرت (أخفى) بأنه أخفى من السر، فلا بد من تحديد المراد من السر أولاً حتى يمكننا التعرف على ما هو أشد خفاءً منه، إذ لا يصح القفز مباشرة من "أخفى" إلى العقل الباطن أو اللاشعور دون تحديد المراد من السر أولاً كما فعل صاحب الدعوى.

المراد من "السر" والأخفى منه

ذكر صاحب كتاب الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل جملة من الأقوال في المراد بـ "السر" و "أخفى" في الآية، وهذا يكشف عن وجود نقاش تفسيري في تحديد المراد منهما، ومن أبرزها¹⁵:

- ذهب بعضهم إلى أن السر هو أن يتحدث الإنسان مع آخر بصورة خفية، وأخفى هو أن يحتفظ الإنسان بذلك القول أو الأمر في قلبه، ولا يتحدث به أحداً.
- وذهب آخرون إلى أن السر هو ما أضمره الإنسان في قلبه، وأخفى هو ما لم يخطر على باله، مع كون الله سبحانه مطلعاً عليه وعالمًا به.
- وقال ثالث: إن السر هو ما يقوم به الإنسان من عمل في الخفاء، وأخفى

¹⁵ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج9، ص528.

هي النية التي في قلبه.

- وقال رابع: إن السر يعني أسرار الناس، وأخفى هي الأسرار التي في ذات الله المقدسة.

وبالنظر إلى هذه الأقوال والمقارنة بينها وبين مفهوم "اللاشعور" أو "العقل الباطن" لا نجد في أي منها إشارة مباشرة. نعم، يبدو أن أقربها -نوعًا ما- إلى هذا المفهوم هو القول الذي يجعل "السر" ما أضمره الإنسان في نفسه، و"أخفى" ما لم يخطر على باله، مع كونه معلومًا لله سبحانه وتعالى، فذلك قد يفتح مجالًا للمقارنة مع بعض ما تصفه العلوم النفسية بالعمليات التي لا تدخل في نطاق الوعي المباشر.

إلا أن هذا التقارب الظاهري لا ينبغي أن يُحمل أكثر مما يحتمل، لأن عدم مرور الأمر على البال لا يعني بالضرورة وجوده في اللاشعور، فقد يكون غير حاضر في ذهن الإنسان لأنه لم يفكر فيه أصلاً، أو لأنه لم يقع بعد، أو لأي أسباب أخرى كما سيأتي مفصلاً.

وأما الأقوال الأخرى، فلا يظهر فيها ما يقتضي إسقاط لفظ "أخفى" على معنى "اللاشعور"، فكون "السر" حديثًا خفيًا أو أمرًا مضمّرًا لا يستلزم منه أن يكون الأخفى منه بالضرورة عدم وعي صاحبه به، فقد يكون الإنسان قاصدًا وعالمًا بما يضمّره ويُخفيه عن الآخرين. كما أن جعل أخفى هو النوايا الكامنة في القلب لا يعني بالضرورة أن هذه النوايا لا شعورية أيضًا، إذ قد يكون الإنسان عالمًا بها وملفتًا

لها إلا أنه يتمكن من إخفائها عن غيره.

لذا، إن أقصى ما يمكن قوله هو أن **بعض** ما أوردته التفاسير في بيان المراد من "أخفى" قد يتقاطع في **بعض** مصاديقه، مع **بعض** الظواهر التي تُبحث في علم النفس تحت مفهوم اللاشعور أو اللاوعي. والانتقال من هذا التقاطع الجزئي المحدود إلى القول بأن "أخفى" في الآية هو "اللاشعور" أو "العقل الباطن" هو انتقال غير مبرر، إذ لا ملازمة بين الأمرين، وإثبات هذا الربط يحتاج إلى دليل مستقل.

وبناءً على ذلك، فإن مجرد وجود معنى يتقاطع مع بعض استعمالات مفهوم ما يُسمى بـ"اللاشعور" أو "العقل الباطن" لا يكفي لنقل لفظ "أخفى" من دلالاته اللغوية والسياقية إلى هذا المفهوم النفسي تحديداً، لأن إثبات إمكان الانطباق شيء، وإثبات أن المتكلم أراد هذا المعنى بعينه دون غيره شيء آخر.

المراد من "أخفى" في الآية

ذهب عدد من المفسرين إلى أن "أخفى" في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ اسم تفضيل من الخفاء، بمعنى أشد خفاءً، وليس فعلاً ماضياً. وقد رجح السيد الطباطبائي هذا المعنى في الميزان، مستنداً إلى سياق الترتيبي في الآية، فقال:

"وقوله: (وأخفى) أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترتيبي في الآية، ولا يصغى إلى قول من قال: إن (أخفى) فعل ماض فاعله ضمير راجع إليه

تعالى، والمعنى: إنه يعلم السر وأخفى علمه. هذا. وفي تنكير (أخفى) تأكيد للخفاء¹⁶.

وبين السيد الطباطبائي أن الانتقال من الجهر بالقول إلى السر، ثم إلى ما هو أخفى، يدل على إحاطة العلم الإلهي بهذه المراتب جميعاً، فيقول: "وذكر الجهر بالقول في الآية أولاً ثم إثبات العلم بما هو أدق منه وهو السر والترقي إلى أخفى يدل على أن المراد إثبات العلم بالجميع". كما يذكر، ضمن احتمالات المعنى، أن يكون الأمر أخفى من السر حتى على الإنسان نفسه¹⁷.

ويعرض الشيخ الطبرسي في مجمع البيان أقوالاً متعددة في المراد بما هو أخفى من السر، منها ما يتعلق بما يضمه الإنسان في نفسه، وما لم يخطر له بعد، وما قد يخطر بباله ثم ينساه¹⁸. ويذكر الزمخشري في الكشف أن مما هو أخفى من السر ما يخطر ببال الإنسان، أو ما يسره في نفسه، أو ما سيُسره فيها (أي مستقبلاً)¹⁹.

وتكشف هذه الأمثلة عن تعدد الجوانب والأبعاد التي تناول بها المفسرون مراتب الخفاء، فهي لا تقتصر على ما يغيب عن وعي الإنسان فحسب، بل تشمل أيضاً ما قد يكون حاضراً في وعيه، أو ما لم يخطر له بعد لارتباطه بالمستقبل.

¹⁶ الميزان في تفسير القرآن، للسيد الطباطبائي، ج 14، ص 122.

¹⁷ المصدر السابق.

¹⁸ مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، ج 7، ص 8.

¹⁹ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، ج 3، ص 52.

ولذا، من الصعب اختزال هذه الصور المتعددة في مفهوم نفسي واحد، كما لا يكفي وجود بعض أوجه التشابه بينها وبين مفهوم "اللاشعور" لإثبات أن هذا المفهوم هو المراد من الآية المباركة.

عبارات السيد الطباطبائي و(العقل الباطن)

قد يستند بعضهم إلى كلام السيد الطباطبائي في أن الأمر قد يكون خفيًا حتى على الإنسان نفسه، ليقول إن هذا الوصف ينطبق على "العقل الباطن" أو "اللاشعور" إلا أن هذا الاستدلال يحتاج إلى التمييز بين وصف شيء بأنه خفي حتى على الإنسان نفسه، وتعيين هذا الشيء بوصفه مكونًا نفسيًا محددًا يُسمى "اللاشعور" أو "العقل الباطن".

فعبارة السيد الطباطبائي تتناول مرتبة من مراتب الخفاء التي يشملها العلم الإلهي، ولا تتضمن في حد ذاتها، تقريرًا لنظرية نفسية أو تعيينًا لمفهوم "اللاشعور" بمعناه النفسي الحديث.

نعم، قد يكون بين الأمرين نوعًا من التقاطع كما بينا سابقًا، غير أن هذا التقاطع لا يعني التطابق، فكون بعض العمليات النفسية خفيًا على الإنسان لا يثبت أن كل ما يكون أخفى من السر هو من قبيل اللاشعور، ولا أن الآية تقصد هذا المفهوم تحديدًا.

والأمر الآخر، أن الاستناد إلى عبارة السيد الطباطبائي لإثبات هذا التفسير يثير سؤالاً مهماً: ما الدليل على أن ما خفي على الإنسان في هذه الحالة هو خفاء لا شعوري؟ فقد يخفى الشيء على الإنسان لأسباب مختلفة؛ فقد يجهله، أو ينساه، أو لا ينتبه إليه، أو لم يخطر بباله أصلاً. وهذه الحالات ليست شيئاً واحداً، ولا يكفي أن تشترك في وصف الخفاء حتى نحكم بأنها من قبيل "العقل الباطن" أو "اللاشعور" بالمعنى النفسي الحديث.

وعليه، أؤكد مجدداً إن أقصى ما يمكن الاستفادة منه في هذا الشأن هو أن بعض ما يخفى على الإنسان قد يتقاطع مع بعض ما تصفه العلوم النفسية الحديثة باللاشعور. أما الجزم بأن "اللاشعور" بمعناه النفسي هو المراد من "أخفى" في الآية، فيحتاج إلى دليل يتجاوز مجرد التشابه في وصف الخفاء.

الوقفه الخامسة: هل السياق القرآني للآية يقر بـ"اللاشعور" أو "العقل الباطن"؟

قبل الخوض في دلالة السياق، أود الإشارة إلى أن صاحب الدعوى قرأ الآية القرآنية الكريمة بصورة خاطئة، إذ بدلاً من القول: ﴿... فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال: (هو يعلم السر وأخفى). وليس المهم هنا إثبات خطئه في القراءة، فهذا قد يكون نتيجة سبق اللسان أو الغفلة أو النقل بالمعنى أو أي أمر آخر، وإنما

في الالتفات إلى التأثير المحتمل لهذا الخطأ على فهم المراد من الآية.

فالبداء بـ(هو) قد يفصل الآية عن سياقها ويفكك ارتباطها بما قبلها، بمعنى أنه قد يجعل التعامل معها وكأنها جملة مستقلة بذاتها، وهذا ما قد يمنع النظر إلى بعض القرائن المهمة التي تُسهّم في تحديد معنى الآية ودلالة ألفاظها.

سياق الآية ضمن الآيات التي قبلها

الآية المباركة ليست جملة منفصلة عن سياقها، وإنما جاءت ضمن سياق عطف على ما قبلها:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٦﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٧﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾²⁰.

وقد أشار ابن عاشور في تفسيره إلى هذا الارتباط بكل وضوح قائلاً: "آية (وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) عَظُفٌ عَلَى جُمْلَةٍ (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [طه: 6] لِدَلَالَةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّتِ الْجُمْلَةُ الْمُعْطُوفُ عَلَيْهَا عَلَى عَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ"²¹.

إذا نظرنا إلى الآيات السابقة ذات الصلة، وجدنا أن الحديث يدور حول

²⁰ القرآن الكريم، سورة طه، الآية 5-8.

²¹ التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 16، ص 188.

الله سبحانه وتعالى وعلمه وسلطانه وإحاطته بما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فالسياق العام لهذه الآيات يتجه إلى بيان شمول العلم الإلهي وإحاطته.

السياق داخل الآية نفسها

من المهم كذلك أن ننظر إلى بناء الآية الداخلي نفسها، إذ بينت ثلاثة أمور: الجهر، والسر، والأخفى. فهي تبدأ بما هو ظاهر ومعلن "الجهر"، ثم تنتقل إلى ما هو خفي "السر"، ثم ترتقي إلى الإشارة إلى ما هو أشد خفاءً منه "أخفى"، وهذا مناسب مع سياق إثبات علم الله وإحاطته سبحانه بالأمور الثلاثة: الجهر، والسر، وما هو أخفى.

لذا فإن التدرج في الآية من الجهر إلى السر إلى ما هو أخفى، يؤكد لنا أن الآية لم تكن بصدد الحديث عن تصنيف أو بيان مكونات النفس الإنسانية، وتحديد ما هي المكونات التي تتفاعل خارج نطاق الوعي البشري، وإنما كانت في مقام عرض مراتب علم الله وإحاطته بالجهر والسر وبما هو أخفى من السر، فهي تقرر أن ذلك كله لا يخرج عن علم الله سبحانه.

وعليه؛ يمكن القول إن الآية المباركة لم تكن في مقام شرح مكونات النفس وتفاعلاتها وفق علم النفس الحديث، وإنما في مقام تقرير إحاطة العلم الإلهي بالجهر والسر وبما هو أخفى من السر. نعم، الآية من حيث عموم شمول العلم الإلهي، لا

يستبعد أن يدخل تحتها ما خفي عن الإنسان ك مفهوم "اللاشعور"، إلا أن هناك فرقاً بين دخول شيء تحت عموم الآية بصورة ما، وبين كون الآية جاءت لبيان ذلك الشيء أو الإشارة إليه.

هل يمكن أن يكون "أخفى" اسماً لبنية نفسية معينة؟

قد يتساءل بعضهم: أليس من الممكن أن ينطبق لفظ "أخفى" في الآية على ما يُسمّى بـ "اللاشعور" أو "العقل الباطن"؟
وللإجابة عن ذلك، نقول: إن مجرد إمكان انطباق لفظ "أخفى" على ما يُسمى بـ "اللاشعور" أو "العقل الباطن" لا يكفي لإثبات أن هذا هو المراد من الآية، إذ لا بد من دليل يثبت دلالة اللفظ على هذا المفهوم تحديداً، وليس مجرد وجود تشابه بينهما في وصف الخفاء. فإمكان انطباق معنى على اللفظ شيء، وإثبات أن ذلك المعنى هو المراد منه شيء آخر.

والأمر الآخر، ما الذي يبرر الانتقال بلفظ "أخفى" من الدلالة على مرتبة من مراتب الخفاء إلى الاستدلال به على بنية نفسية محددة لدى الإنسان تُسمى "العقل الباطن" أو "اللاشعور"؟ إن الانتقال من المعنى اللغوي إلى تعيين مفهوم نفسي اصطلاحى يحتاج إلى دليل مستقل، ولا يكفي فيه مجرد الاشتراك في وصف الخفاء.

وهذه المسألة لها صلة بما بحثه علماء الأصول في حجية الظهور العرفي ودور السياق في تحديد المراد من الكلام، إذ لا يُفهم اللفظ بمعزل عن القرائن المحيطة به. وقد أكد السيد محمد باقر الصدر أهمية النظر إلى السياق بوصفه كلاً مترابطاً في تحديد المعنى الظاهر للكلام²². وبناءً على ذلك، فإن اقتطاع لفظ "أخفى" من سياقه والنظر إليه بوصفه مصطلحاً مستقلاً لا يكفي لإثبات دلالة على مفهوم "اللاشعور" أو "العقل الباطن".

ولذا، فإن من يريد العدول عن الظهور الذي يقتضيه السياق إلى معنى آخر يحتاج إلى قرينة معتبرة تبرر له ذلك، إذ لا يكفي أن نقول: "العقل الباطن" أو "اللاشعور" شيء خفي على الإنسان، والآية تقول: "أخفى"، فهذا يدل على ذلك، فذلك لا يتجاوز مجرد التشابه في وصف الخفاء، بينما المطلوب هو إثبات دلالة اللفظ القرآني على هذا المفهوم النفسي تحديداً.

ومما تقدم؛ يتضح لنا أن النظر في السياق العام والسياق الداخلي للآية يجعل القراءة الأقرب إلى ظاهرها هي أنها كانت بصدد تقرير إحاطة العلم الإلهي بالجهل والسر وبما هو أخفى من السر. أما أن تكون الآية بصدد الإشارة إلى "العقل الباطن" أو "اللاشعور" بوصفه مكوناً من مكونات النفس البشرية، فلا يُقدم السياق أي قرينة كافية تدعم أو تقوي هذا المعنى.

²² دروس في علم الأصول، للسيد محمد باقر الصدر، ج1، ص106.

نقطة مهمة

إن ما يُسمى بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور" في علم النفس ليس شيئاً معدومًا ينتظر الوجود، بل يُشير إلى عمليات أو محتويات نفسية موجودة وتؤثر فعلياً في سلوك الإنسان وتصرفاته، وإن لم تكن حاضرة في وعيه اللحظي وقتها.

وبناءً على ذلك، فإن حصر معنى "أخفى" في "العقل الباطن" أو "اللاشعور" ينطوي على اختزال لدلالة الآية المباركة، إذ يقصر ما تتناوله من شمول العلم الإلهي على أمر موجود بالفعل فقط، وإن كان خفياً عن وعي الإنسان، بينما يُشير سياق الآية إلى إحاطة العلم الإلهي بما خفي عن الإنسان، سواء أكان أمراً موجوداً بالفعل في نفسه أم أمراً لم يتحقق وجوده أو ظهوره بعد.

الوقفه السادسة: الخفاء: أخفى بالنسبة إلى من؟ وأخفى من حيث ماذا؟

لو افترضنا جدلاً بأن "العقل الباطن" أو "اللاشعور" هو المراد بـ"أخفى من السر" في الآية، فإن هناك سؤال مهم للغاية يطرح نفسه هنا: هو أخفى بالنسبة إلى من؟ وأخفى من حيث ماذا؟

أولاً: أخفى بالنسبة إلى من؟

هنا عدة احتمالات: هل هو:

- أخفى بالنسبة إلى الإنسان صاحب النفس؟
- أم أخفى بالنسبة إلى الطبيب أو المحلل النفسي؟
- أم أخفى بالنسبة إلى عموم الآخرين؟
- أم أخفى بالنسبة إلى الملائكة، كما قد يُفهم من الاستدلال بمقطع دعاء كميل الذي استشهد به صاحب الدعوى.

وهذه الأسئلة مهمة للغاية، فقد توجد لدى الإنسان بعض الدوافع أو الإنحيازات التي لا يعيها بصورة مباشرة، بينما يمكن للآخرين أن يستدلوا عليها من خلال تكرار أنماط معينة في سلوكه وتصرفاته، وقد يحدث العكس أيضاً، فقد يدرك الإنسان دوافعه جيداً، بينما تخفى على الآخرين.

وهذا يدل على أن الخفاء ليس في رتبة واحدة أو ثابتة، لأنها قد تتغير بتغير الزاوية التي ننظر منها إلى الشيء. لذا، فإن القول بأن "العقل الباطن" هو أخفى من السر في الآية يحتاج أولاً إلى تحديد: هل المقصود أنه أخفى عن الإنسان نفسه؟ أم أخفى عن الآخرين؟ أم أخفى عن الجميع؟

ولنأخذ مثلاً للتوضيح: قد يستطيع الطبيب أو المعالج النفسي، من خلال بعض الأساليب المتبعة في علم النفس، الاستدلال على دوافع أو انحيازات معينة لا

يعيها الشخص نفسه. وفي هذه الحالة، هل يعني تمكن المعالج النفسي من التعرف عليها أنها لم تعد خفيةً عليه؟ بل قد تنكشف هذه الدوافع لاحقاً للشخص نفسه بعد إخبار المعالج له، فلا تبقى خفيةً عليه أيضاً. وهنا يبرز السؤال: هل يظل من الممكن بعدها ربط لفظ "أخفى" في الآية بـ"العقل الباطن"؟

ثانياً: أخفى من حيث ماذا؟

ولا يكفي كذلك تحديد الجهة التي يكون الشيء خفياً بالنسبة إليها، بل لابد من تحديد وجه هذا الخفاء أيضاً، فما المقصود بكون "العقل الباطن" أو "اللاشعور" أخفى من السر؟ هل هو أخفى من حيث:

- إمكانية الوصول إليه؟
- أم من حيث عدم ظهوره في السلوك الخارجي للإنسان؟
- أم من حيث عدم إدراك صاحبه له أصلاً؟
- أم من حيث عدم وقوعه بعد؟

وكما تلاحظون؛ فإن هذه الاحتمالات لا توصل إلى شيء واحد، وإنما إلى أشياء متعددة، ولذا فإن الانتقال من "أخفى" إلى "العقل الباطن" يحتاج إلى تحديد ثلاثة أمور على الأقل:

- أولاً: تحديد جهة الخفاء: أخفى بالنسبة إلى من؟
- ثانياً: تحديد وجه الخفاء: أخفى من أي جهة؟

- ثالثًا: تحديد معيار الخفاء: ما الذي يجعل هذا النوع من الخفاء "أخفى من السر" تحديدًا؟

ومن دون الإجابة عن هذه الأسئلة الأساسية المهمة، يبقى الربط بين "أخفى" واللاشعور أو العقل الباطن هزياً للغاية، لأنه معتمد فقط على مجرد التشابه في الوصف، وليس على الدلالة التي تثبتها الآية، وقد أشرنا للنقطة الأولى والثانية في هذه الوقفة، وأما النقطة الثالثة الخاصة بتحديد معيار الخفاء، فسنطرق لها في الوقفة التالية.

الوقفة السابعة: العلاقة بين "السر" و"اللاشعور"

- هل يمكن أن يكون "اللاشعور" نفسه داخلاً في "السر" أحياناً؟
- إن العلاقة بين "السر" و"اللاشعور" ليست بالضرورة علاقة تعارض وتضاد، بحيث يصنف الأمر إما سرّاً أو لا شعوراً، بل يمكن أن يحدث بينهما نوع من التداخل بحسب الزاوية التي يُنظر من خلالها إلى الخفاء.

فإذا كان "السر" يدور لغويّاً حول معنى المستور والمكتوم، فإن بعض المحتويات النفسية الخفية قد تدخل في معنى "السر" أيضاً، وذلك من جهة كونها مستورة وخافية عن الآخرين، حتى لو كانت في الوقت نفسه تقع ضمن نطاق الوعي والشعور لدى صاحبها.

وبعبارة أخرى، لا يحدد مفهوم "السر" و"اللاشعور" الشيء من الزاوية ذاتها، فالسر قد يتعلق بكون الشيء مستورًا عن الآخرين، بينما يتعلق "اللاشعور" بكونه خارج نطاق الوعي. ولذا، يمكن أن يجتمعا في بعض المصاديق، كما يمكن أن يفترقا في مصاديق أخرى.

وهذا يكشف أن وصف الشيء بأنه "أخفى من السر" لا يعني وصفه بأنه ضمن نطاق "اللاشعور"، كما أن وصف الشيء بأنه داخل في "اللاشعور" لا يستلزم منه أن يكون "أخفى من السر".

ما الذي قد يكون أخفى من السر ولا يدخل تحت مفهوم (العقل الباطن)؟
إذا كان المراد بـ "أخفى" ما هو أشد خفاءً عن الإنسان نفسه، فهناك صور خفية على الإنسان، ومع ذلك لا يلزم أن تدخل ضمن مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، منها:

■ **الأفعال والقرارات المستقبلية:** ما سيصدر عن الإنسان مستقبلاً من أفعال وقرارات لم تخطر في باله بعد، ولم تتشكل لديه إرادة حقيقية بشأنها. فهذه الأمور معلومة لله سبحانه وتعالى، لكنها لم تصبح بعد محتوى حاضراً في وعي الإنسان، ولا يلزم كذلك أن تكون مخزنة في العقل الباطن أو اللاشعور.

■ ما لم يتبلور بعد في صورة فكرة واضحة أو نية محددة: فقد يمر الإنسان بطروف تتطور لاحقاً إلى فكرة أو قرار، دون أن تكون تلك الفكرة أو النية قد تشكلت لديه بعدُ بصورة محددة واضحة ونهائية، بحيث يمكنه إدراكها والتعبير عنها، إذ لا يصح افتراض أن كل ما سيتشكل في وعي الإنسان مستقبلاً موجود مسبقاً في لا شعوره.

■ الدوافع والنوايا التي لا يحيط الإنسان بجميع أبعادها: فقد يعرف الإنسان بعض دوافعه وما ينوي فعله وتكون في وعيه وشعوره، لكنه لا يدرك جميع الأسباب والعوامل التي أسهمت في تكوين نيته أو توجيه قراره. غير أن عدم إحاطته بجميع هذه العوامل غير كافٍ لتحديد طبيعتها أو الجزم بأن جميعها تنتمي إلى "اللاشعور" بمعناه النفسي.

ولا يُراد بهذه الأمثلة إثبات أن هذه هي بالضرورة معاني "أخفى" في الآية، وإنما الغرض منها هو نقض الملازمة التي تقوم عليها الدعوى، فمجرد كون الشيء خفياً عن الإنسان (صاحب النفس) أو عن غيره لا يكفي لاعتباره داخل في مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور".

ومن هنا يتضح أن القول بأن "اللاشعور" هو "أخفى من السر" لا يمكن إثباته

بمجرد ملاحظة أن بعض محتويات "اللاشعور" قد تكون خفية عن الإنسان نفسه، لأن ذلك لا يثبت إلا وجهًا واحدًا من وجوه الخفاء، ولا يثبت أنه المراد مما هو أخفى من السر في الآية.

لذلك، ما دام "اللاشعور" ليس بالضرورة أخفى من السر، وما لا يعلمه الإنسان أصلاً لا يلزم أن يكون مخزونًا في لا شعوره، فإن العلاقة بين المفهومين لا يمكن أن تقوم على مجرد اشتراكهما في وصف الخفاء.

وعليه، فإن غاية ما يمكن إثباته هو أن بعض ما يندرج في مفهوم اللاشعور قد يتصف بالخفاء عن الإنسان. أما الانتقال من ذلك إلى القول بأن "أخفى" في الآية هو "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، فهو انتقال يحتاج إلى دليل مستقل، ولا يكفي الاعتماد على إمكان الانطباق لإثبات ذلك.

الوقف الثامنة: الاستدلال بالروايات على (العقل الباطن)

أولاً: رواية "ما أضمر"

استدل صاحب الدعوى على "العقل الباطن" بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "ما أضمر امرؤ في قلبه شيئاً، إلا وظهر على قسمات وجهه أو فلتات لسانه". ثم عقب على الرواية بقوله: "هذا العقل الباطن".

المناقشة

■ تختلف الرواية التي استشهد بها صاحب الدعوى في بعض ألفاظها عن النص الوارد في بعض المصادر، والذي استشهد به الشيخ السبحاني في كتابه. فقد أورد صاحب الدعوى عبارة: "ما أضمر امرؤ في قلبه شيئاً"، في حين جاء نص الرواية في المصادر المذكورة على النحو التالي: "ما أضمرَ أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه". وتبرز الفروق بين النصين في موضعين:

○ أولاً: اختلاف اللفظ: استخدم صاحب الدعوى لفظ "امرئ" بدلاً من "أحد".

○ ثانياً: اختلاف العبارة وترتيب الألفاظ: ذكر صاحب الدعوى "قسمات وجهه أو فلتات لسانه"، في حين ورد في النص الآخر "فلتات لسانه وصفحات وجهه"، مع اختلاف التعبير عن الوجه، واستخدام "و" بدلاً من "أو"، وتقديم فلتات اللسان على صفحات الوجه.

■ لفظ "أضمر" يدل على الإخفاء والكتمان وإسرار الشيء في النفس، ولا يلزم من ذلك أن يكون الإنسان غير عالم بما أضمره، فقد يكون عالماً به وقاصداً إخفاءه، لكنه لا يتمكن من كتمانها تماماً، فتظهر آثاره في فلتات لسانه أو صفحات وجهه. ومن الاستعمالات اللغوية الدالة على القصد قولهم: "أضمر الشر"، أي قصده وعزم عليه. وبناءً على ذلك، لا تتطابق

دلالة "أضمر" في الرواية بالضرورة مع مفهوم العقل الباطن أو اللاشعور، إذ إن الإضمار لا يستلزم غياب الوعي، بينما يشير اللاشعور إلى عمليات أو دوافع لا يكون الإنسان واعيًا بها.

■ لم يبين لنا صاحب الدعوى ما يُسوغ حمل لفظ "أضمر" في الرواية على مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور". فإذا كان العقل الباطن، بحسب تصوره، يُشير إلى ما لا يشعر به الإنسان، وكان هذا هو ما يجعله "أخفى من السر"، فكيف يمكن الاستدلال برواية تتحدث عما "أضمر" الإنسان، أي ما استقر في نفسه وأخفاه، على هذا المفهوم النفسي تحديداً؟ فمجرد احتمال وجود علاقة بين الإضمار واللاشعور لا يكفي لإثبات أن الرواية تقصد هذا المفهوم تحديداً، إذ إن ذلك يحتاج إلى قرينة تدل على إرادة هذا المعنى، وليس مجرد إمكان حمل اللفظ عليه.

■ إذا كان صاحب الدعوى قد نقل ما أورده عن الشيخ السبحاني، سواءً بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فإن هذا النقل يحتاج إلى مزيد من الدقة، إذ يبدو من كلام الشيخ السبحاني أنه يُقدم مقارنة أكثر تفصيلاً للعلاقة بين الرواية ومفهوم العقل الباطن، وإن كانت هذه المقاربة لا تخلو من ملاحظات أيضاً، فالشيخ لا يكتفي بربط الرواية بالعقل الباطن فقط، بل يشير إلى ظهوره عند تراجع سيطرة العقل الواعي أو تحت تأثير المؤثرات النفسية القوية، إذ يقول: "في إشارة واضحة إلى العقل الباطن الذي يختفي عند سيادة العقل الواعي، ثم يظهر على حين غرة عند كبوته أو خضوعه

للمؤثرات النفسية القوية: ما أضَمَرَ أحدٌ شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه"²³.

ومع ذلك، فإن هذا الطرح لا يحسم الإشكال الذي أشرنا إليه سابقاً، لأن كون ما يُضمِره الإنسان أمراً مستبطناً في نفسه لا يعني بالضرورة أنه خارج عن وعيه، كما أن ظهور ما يكتمه عند تراجع قدرته على ضبط نفسه لا يثبت أن المقصود هو الاشعور بالمعنى النفسي الاصطلاحي. ومن هنا، تبدو مقارنة الشيخ السبحاني أكثر تفصيلاً من طرح صاحب الدعوى، لكنها تظل بحاجة إلى بيان الدليل الذي يربط دلالة الرواية بهذا المفهوم النفسي تحديداً.

ثانياً: مقطع من دعاء كميل: "والشاهد لما خفي عنهم"

استدل صاحب الدعوى كذلك بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل:

"الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم". ثم عقب على ذلك بقوله: "هناك أمور تخفى عن الملائكة. هي هذه. ميول العقل الباطن التي يطلع عليها الله تبارك وتعالى".

²³ نظرية المعرفة (المدخل إلى العلم والفلسفة واللاهيات)، للشيخ جعفر السبحاني، بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي ج، 1، ص 255-257.

المناقشة

- نلاحظ هنا أن صاحب الدعوى انتقل من التركيز على ما يخفى على الإنسان نفسه في مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، إلى ما يخفى على الملائكة في مقطع دعاء كميل، وهذان شيئان مختلفان، ولا يصح الاستدلال بأحدهما على الآخر لمجرد اشتراكهما في وصف الخفاء. وكان الأحرى به أن يستدل على كلامه بما يخفى على الإنسان نفسه، وفق السياق الذي يتطلبه هذا الاستدلال، أو أن يُقدم مقارنة أوضح تبين وجه انتقاله من المعنى الأول إلى المعنى الثاني.
- إن "اللاشعور" قد يضم عادات وذكريات ورغبات واستجابات وميولاً نفسية، وهذه قد تتجلى في سلوكيات الإنسان الظاهرة وآثاره السلوكية، فكيف تكون هذه الأمور داخلة ضمن ما هو خافٍ عن الملائكة الموكلين بمراقبة الإنسان، بينما هي تظهر في أفعاله وسلوكياته، بل وعلى "فلتات لسانه وصفحات وجهه".
- وبناءً على ما سبق، فإن حمل "ما خفي عنهم" على الخواطر والنوايا القلبية الدقيقة، كالرياء والشرك الخفي، أو السرائر وحديث النفس وما ينطوي عليه ضمير العبد مما لم يتحول إلى قول أو فعل، يبدو -من جهة هذا الاستدلال- أقرب من حمله على "العقل الباطن"، لأنها أقرب إلى جهة الخفاء، ولا يلزم في تفسيرها افتراض الإشارة إلى مفهوم نفسي حديث.
- ليس هناك ملازمة بين كون الشيء خافياً عن الملائكة، وبين كونه لا

شعورياً أو داخلاً ضمن "العقل الباطن" فقد يكون المراد النوايا أو خواطر القلب، أو حديث النفس، أو ما لم يتحول إلى قول أو فعل، أو غير ذلك من وجوه الخفاء التي لا تستلزم دخولها في مفهوم "اللاشعور" بحسب المصطلح النفسي الحديث.

وعليه، فإن الجامع بين هذه الدعوى ودعاء كميل هو وصف الخفاء فقط. أما تعيين نوع هذا الخفاء بأنه "اللاشعور" أو "العقل الباطن"، فذلك أمر يحتاج إلى دليل مستقل، ولا يكفي فيه مجرد التشابه في الوصف كما ذكرنا أكثر من مرة.

الاستدلال على (العقل الباطن) بالشعر الجاهلي

تخيل أن يأتي أحدهم ليستشهد بقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى على وجود مفهوم "اللاشعور" أو "العقل الباطن"، مستنداً إلى قوله في معلقته الشهيرة:

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

ثم يزعم أن زهيراً سبق علم النفس الحديث إلى اكتشاف ما يسمى بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور"، فقط لأن هذا البيت يتحدث عن أمور خفية عن الناس. فهل يصح أن نعد هذا البيت من الشعر إشارة إلى "اللاشعور" أو "العقل الباطن"،

ثم نصف ذلك بالسبق العلمي أو الإعجاز العلمي في الشعر الجاهلي؟

من المؤكد أن مجرد وجود وجه من التشابه لا يكفي لإثبات هذا الأمر، لأن سياق البيت الشعري كان يتحدث عن أخلاق الإنسان وطباعه التي يظن أنها تخفى على الناس "وإن خالها"، وليس عن "اللاشعور" بوصفه مفهومًا نفسيًا محددًا، بل حتى لو أمكن إيجاد وجه من التقاطع بين المعنى الذي جاء في هذا البيت من الشعر، وبعض الظواهر التي يدرسها علم النفس، فإن ذلك لا يثبت أن الشاعر زهير ابن أبي سلمة كان يقصد هذا المفهوم أو يتحدث عنه تحديدًا.

ومن هنا تتجلى وبكل وضوح الإشكالية التي نريد لفت الأنظار إليها، وهي: ليس كل نص يتحدث عن الخفاء يقصد اللاشعور، كما أن اكتشاف قدر من التشابه بين نص قديم ومفهوم حديث لا يعني أن هذا النص قد سبق إلى اكتشاف ذلك المفهوم.

تجاهل رواية تُفسر الآية

ومن اللافت أن صاحب الدعوى لم يتناول، ضمن استدلاله على أن المراد بـ"أخفى" هو العقل الباطن، روايةً مهمة وردت في تفسير الآية، أشار إليها الشيخ السبحاني في كلامه، وهي الرواية التي أوردها الشيخ الصدوق عن محمد بن مسلم، قال: "سألت أبا عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ الْبِشْرَ وَأَخْفَى﴾"، قال: السر ما كتمته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم

أنسيته». وقد أورد السيد هاشم البحراني هذه الرواية في البرهان في تفسير القرآن²⁴.

هل تدل هذه الرواية على "العقل الباطن" أو "اللاشعور"؟

قد يُستدل بهذه الرواية على أن بعض ما يخفى على الإنسان هو ما خطر بباله ثم نسيه، فهذا ما قد يُلاحظ فيه وجه من التشابه مع بعض التصورات المتعلقة بالعمليات النفسية التي لا تكون حاضرة في الوعي في بعض الوجوه، لكن هل يكفي هذا التشابه للقول إن الرواية تتحدث عن "العقل الباطن" أو "اللاشعور" بالمعنى النفسي الحديث؟

بالتأكيد لا، نعم، تصف الرواية أمرًا محددًا وهو خاطر مر بذهن الإنسان ثم نسيه. غير أن هذا يختلف عن تقرير وجود بنية نفسية محددة تحتزن الدوافع والرغبات والمحتويات غير الواعية، فمجرد أن فكرة قد خطرت للإنسان ثم نسيها لا يعني، أنها أصبحت جزءًا من "اللاشعور" بمعناه النفسي. كما أن عدم استحضار الإنسان لفكرة في لحظة معينة لا يثبت أنها مخزنة في مستودع نفسي خفي يُسمى "العقل الباطن" أو "اللاشعور".

عليه، فإن أقصى ما يمكن قوله هنا أن هذه الرواية تصف صورة من صور الخفاء التي قد يتقاطع وصفها مع بعض ما يبحث في علم النفس في اللاوعي أو اللاشعور، دون أن يثبت بذلك أنها تتحدث عن المفهوم النفسي نفسه.

²⁴ البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني، ج3، ص757.

الوقفة التاسعة: موقف علم النفس من اللاشعور (العقل الباطن)

بعد أن ناقشنا دلالة مفردة "أخفى" في الآية، وكذلك دلالة الروايات التي استعرضناها على مفهوم "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، تبرز إشكالية أخرى تتعلق بطبيعة هذا المفهوم نفسه: فما مدى الاتفاق على دلالاته في علم النفس؟ وإلى أي حد تتفق المدارس النفسية في تصوره؟ وما مدى توافق التصورات المطروحة بشأنه مع الفكر الإسلامي؟²⁵

إن توظيف مفاهيم علم النفس الحديث في قراءة النصوص القرآنية يقتضي التمييز بين طبيعة كلا المصدرين، فالقرآن الكريم قطعي الصدور، في حين أن المفاهيم والنظريات النفسية ليست جميعها على درجة واحدة من الثبوت والثبات، فمنها ما تدعمه أدلة علمية راسخة، ومنها ما يزال موضع بحث ومراجعة، ومنها ما تتغير حدوده أو تتبدل نماذجه مع تطور المعرفة العلمية في ميادينه. وقد تناول بعض الباحثين، وهو الدكتور نزار سعيد العاني، ما وصفه بأزمة علم النفس المعاصر في النظرية ومصادر المعرفة والمنهجية والمعايير²⁶.

ومن هنا يبرز سؤال: هل يصح تعيين المراد من نص قرآني بالاستناد إلى

²⁵ أزمة علماء النفس المسلمين، للأستاذ الدكتور مالك بدري، دار ديونو للنشر والتوزيع عمان-الأردن، الطبعة الأولى 2010م.

²⁶ هناك ورقة بعنوان: "أزمة علم النفس المعاصر في النظرية ومصادر المعرفة والمنهجية والمعايير" للدكتور نزار سعيد العاني أستاذ علم النفس.

مفهوم نفسي لم تستقر دلالاته، ولم يتحقق الاتفاق على حدوده ومعناه؟

ولا يعني ذلك أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتوافق مع أي حقيقة علمية أو نفسية، أو أن كل المفاهيم المستمدة من العلوم الحديثة لا تصلح للاستفادة منها في قراءة النصوص الدينية، وإنما المقصود ضرورة التمييز بين الحقائق التي تدعمها الأدلة الراسخة، والنظريات والنماذج التي لا تزال قابلة للبحث والمراجعة والنقاش، فكيف إذا حصل ذلك مع تحميل النص القرآني دلالة لا يثبتها اللفظ أو السياق أو القرائن؟ كما هو الحال في دعوى أن "أخفى" في الآية هو "العقل الباطن".

وفي هذا السياق، ينبغي التمييز بين الإقرار بوجود عمليات نفسية خارج نطاق الوعي، وبين تبني تصور محدد لطبيعتها وآلية عملها، فالأبحاث النفسية المعاصرة تتناول بالفعل أنماطاً متعددة من هذه العمليات، ولا يلزم من الإقرار بوجودها التسليم بأنها جميعاً مخزنة في مستودع نفسي واحد يُسمى "العقل الباطن" أو "اللاشعور"، فضلاً عن أن يثبت بذلك أن هذا هو المراد بلفظ "أخفى" في الآية.

وعليه، لا يكفي إثبات وجود عمليات نفسية لا واعية لإثبات صحة القراءة المطروحة، إذ تبقى الحاجة قائمة إلى دليل يربط المفهوم النفسي المحدد بدلالة الآية، بدلاً من الاكتفاء بالتشابه العام الحاصل بين مفهوم الخفاء وبعض العمليات التي تجري خارج نطاق الوعي.

كلمة الختام

لا أدعي أن هذه القراءة النقدية تامة أو مكتملة، أو أنها أحاطت بالمسألة من جميع جوانبها وتفصيلها، ولا أطرحها بوصفها حقيقة لا تقبل المراجعة أو النقد. وأؤكد مجدداً أنني لا أسعى إلى الانتقاص من قدر الآخرين أو الانتصار للذات، وإنما أدعو ببساطة إلى مناقشة الفكرة والتحقق من مدى صحتها، وأرحب بأي نقد علمي جاد يصحح المسار أو ينبه إلى ما قد فات.

فالعبرة، في نهاية المطاف، ليست بمن قال، بل بما قال، فالأفكار لا تُقاس بمنزلة أصحابها ولا بمدى انتشارها، وإنما بقوة الدليل وسلامة الاستدلال.